

التشبيه المنفي في نفي المساواة بين المسلمين والكافرين في القرآن الكريم

د. محمد سليمان عبد الحفيظ*

المقدمة:

يعد التشبيه من أبرز أنماط التصوير البلاغي في القرآن الكريم، وعلى السنة الخاصة والعامّة، فهو أحد الأساليب التي تنوّعت صورها، وتعدّدت دلالاتها على المعاني المختلفة في القرآن الكريم، وأحد مباحث البلاغة العربية التي عدّت من أبرز وجوه إعجازه، وهو الميدان الفسيح الذي تتسابق فيه قرائح الأدباء والشعراء، والمقياس الفني للمفاضلة بينهم، والميزان الحساس الذي توزن به الأعمال الإبداعية؛ لإظهار قيمتها، والحكم عليها بالجودة أو الرداءة، كما أنه من أكثر المباحث البلاغية التي لاقت اهتماماً واسعاً من قبل العلماء والباحثين المهتمين بقضايا البلاغة العربية. ونتيجة لهذا الاهتمام، فقد توسّع البلاغيون في دراسة التشبيه، وأكثروا من تحديد أنواعه وأقسامه، وهي أنواع وأقسام ناتجة عن ملاحظة بعض الاختلافات في بنية التشبيه وطريقة صياغته، المتمثلة في: أركان التشبيه، وأغراضه المختلفة⁽¹⁾.

تساؤلات البحث: يقوم البحث على مجموعة من التساؤلات؛ عن ماهية التشبيه المنفي، وبنيته، والأسلوب الذي جاء به، والمعاني التي عبر عنها في القرآن الكريم؛ مثل: ما التشبيه المنفي؟ وما أركانه؟ وما طريقة بنائه؟ وهل هو من الأقسام أو الأنواع التي عدها علماء البلاغة للتشبيه؟ وهل تنطبق عليه تعريفاتهم له؟ وهل أركانه هي أركان التشبيه المعروفة؟ وهل طريقة بنائه تأتي وفق ما عليه الأصل في بناء الصور التشبيبية؟ وهل هو أسلوب تميز به القرآن الكريم أو أنه جار على السنة البلغاء؟ وما الطريقة التي جاء بها في القرآن الكريم؟ وكيف جاء التعبير به عن نفي المساواة

* عضو هيئة تدريس، بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية/ الجامعة الأسمرية الإسلامية @M.Hafeez
asmarya.edu.ly

(1) ينظر: الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق ودراسة: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 1996م، ص: 248 - 302، والبارقي (أجل الدين محمد بن محمد)، شرح التلخيص، دراسة وتحقيق: محمد مصطفى صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط 1، 1392 و.ر، 1983م، ص: 468 -

بين المسلمين والكافرين؟ وما أحوال المسلمين وأحوال الكافرين التي نفى الله - سبحانه وتعالى - المساواة فيها؟.

موضوع الدراسة: يقف البحث عند التشبيه المنفي، والآيات القرآنية التي اشتملت على التشبيهات المنفية في نفي المساواة بين المسلمين والكافرين، التي ذكرت فيها أركان التشبيه الرئيسية. أهداف البحث: يهدف إلى تأكيد إعجاز القرآن الكريم، وارتفاع بلاغته عن مستوى طاقة البشر، بالكشف عن نوع من أنواع التشبيه، وأسلوب من أساليب بلاغة القرآن، التي هي من أبرز وجوه إعجازه، من خلال تجلياتها في النصوص القرآنية.

أهمية البحث: ترجع أهمية البحث، وسبب اختيار هذا الموضوع لكونه يأتي في نطاق خدمة القرآن الكريم بالبحث في قضايا بلاغته، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية هي أن التشبيهات المنفية لا وجود لها خارج القرآن الكريم، ولا في كلام العرب إلا نادراً، وبأسلوب يختلف عما جاءت عليه في القرآن الكريم، يضاف إلى ذلك أن نماذجها في القرآن الكريم لم تلق العناية الكافية من الدراسة والتحليل من قبل الباحثين.

المنهج المتبع: يعتمد البحث على المنهج التحليلي، المتمثل في تحليل هذه الظاهرة، وبيان أركانها، وطريقة بنائها، من خلال تحليل النصوص القرآنية التي عبرت عن نفي المساواة بين المسلمين والكافرين في أحوال مختلفة، وأوصاف متنوعة، بالاستفادة مما قاله بعض المفسرين أو المهتمين بعلوم القرآن وبلاغته في شرح هذه النصوص وتحليلها.

الدراسات السابقة: لم أقف على أي دراسة أو بحث لأحد من البلاغيين أو الباحثين المهتمين بقضايا البلاغة العربية تناول التشبيه المنفي، أو عدّه قسماً أو نوعاً من أقسام التشبيه وأنواعه المختلفة، مع التغيرات التي تطرأ في بنيته، مما تؤهله لأن يكون قسماً أو نوعاً من أقسام التشبيه وأنواعه، وربما كان عدم انطباق تعريف التشبيه حتى في أبسط صورته، وهو: «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»⁽¹⁾ على التشبيه المنفي سبباً في ذلك، وحتى من وقف على بعض نماذجها من الباحثين المهتمين بقضايا البلاغة العربية، فإن تناوله لها أو استشهاد به، كان - على حدّ

(1) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 248.

علمي - في إطار أحد الأقسام أو الأنواع المعروفة للبلاغة، وليس في إطار التشبيه المنفي، يستثنى من هؤلاء الباحثين الدكتور عبد العظيم المطعني في كتابه: "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية"، فقد تناول التشبيه المنفي، ومثل له بنماذج من القرآن الكريم، تحت مسمى "التشبيه السلبي في القرآن الكريم"⁽¹⁾، وهو مسمى قد يوحي بدلالة أخرى غير التي يعينها الباحث.

الشرح والتحليل:

"التشبيهات المنفية في نفي المساواة بين المسلمين والكافرين"، جاءت في القرآن الكريم، من خلال نفي مساواة بعضهم ببعض، في أحوال مختلفة وبأوصاف متنوعة، أبرزها:

1- نفي المساواة بين حال المسلمين وحال المجرمين:

نفي الله ﷻ المساواة بين حال المسلمين الذين آمنوا به وأسلموا وجوههم له، وحال المجرمين الذين كفروا به وأجرموا في حقه، وذلك في قوله تعالى: (أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)⁽²⁾.

فالفعل (نجعل) في الآية بمعنى ننقل ونصير، والنقل والتصيير راجعان إلى الحال؛ أي: لا نجعل حال هؤلاء مثل حال هؤلاء، ولا ننقلها إليها⁽³⁾، والمجرمون هم الكفار على وجه العموم، أو كفار قريش على وجه الخصوص، الذين كانوا «يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين، قالوا: إن صح أن نبعث كما يزعم محمد ومن معه، لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساونا، فقل: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين»⁽⁴⁾.

(1) ينظر: عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1413 هـ - 1992 م، 270/2 - 276.

(2) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، سورة القلم، الآية: (35).

(3) ينظر: الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، دت، 130/4 - 133.

(4) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به ورتب حواشيه: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط 1، 2012 م، 593/4.

فالمشبه هو حال المسلمين، والمشبه به هو حال المجرمين، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، الذي أفاد توبيخ الكافرين وتقريعهم⁽¹⁾، وهو استفهام إنكاري يراد به النفي⁽²⁾، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه يحتمل أن يكون سوء المصير، وذلك على اعتبار أن سوء المصير صفة ذم، وليس مدحاً، والقاعدة في الذم «تشبيه الأعلى بالأدنى؛ لأن الذم مقام الأدنى، وفي المدح تشبيه الأدنى بالأعلى؛ لأن الأعلى ظاهر عليه»⁽³⁾، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن سوء المصير هو المعنى الأعراف والأقوى والأخص بالمشبه به (المجرمين)؛ «لأن المشبه به حقه أن يكون أعرف بجهة التشبيه من المشبه، وأخص بها، وأقوى حالاً معها»⁽⁴⁾. ويحتمل أن يكون وجه الشبه المنفي، هو حسن الثواب في الآخرة، وذلك بالنظر إلى أن تشبيه المسلمين بالمجرمين، جاء وفق معتقد المشركين أنهم أعلى والمؤمنون أدنى⁽⁵⁾، وهذا الرأي يرحّحه ما يروى في سبب نزول هذه الآية، وأنها جاءت في خطاب المشركين، بدليل أن الله تعالى قال في الآية التي تليها: (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ⁽⁶⁾، ولهذا عدّ بعضهم التشبيه في الآية من قبيل التشبيه المقلوب وهو إيهام «أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه»⁽⁷⁾، وذلك لكون أن الكلام في الآية جاء مسيراً لادعاء المشركين بأنهم أفضل من المسلمين⁽⁸⁾.

-
- (1) ينظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ط 8، 1422هـ - 2001م، 38/8 - 39.
- (2) ينظر: عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، 1105/15.
- (3) السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه و صححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1408هـ - 1988م، 207/1.
- (4) السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد)، مفتاح العلوم، حققه وقدم له وفهرسه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط 1، 1420هـ - 2000م، ص 453.
- (5) ينظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 230/4.
- (6) سورة القلم، الآية، 36.
- (7) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 276.
- (8) ينظر: محمود بن عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق، دار الإيمان، بيروت، ط 4، 1418هـ، 46/29.

ونفي التساوي أو التشابه بين المسلمين والمشركين، هو: « كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة، وحرمان المشركين منه؛ لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب ...، وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير، انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظاً في الآخرة من المسلمين، كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب »⁽¹⁾.
وفي هذه الآية لون من ألوان البديع، هو "الطباق" بين المسلمين والمجرمين.

2- نفي المساواة بين حال المؤمنين العاملين للصلح وحال المفسدين في الأرض، وبين حال المتقين وحال الفجار:

نفي الله ﷻ المساواة بين حال الذين آمنوا به ورسوله ﷺ وبما جاء في كتابه، وعملوا صالحاً في الحياة الدنيا، وحال الذين أفسدوا في الأرض بمعتقداتهم وأفعالهم، كما نفي المساواة بين حال من كان شعارهم التقوى في طاعته والإيمان به، وحال من كان شعارهم الفجور في معصيته والكفر به، وذلك في قوله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)⁽²⁾.

فالمقصود بالفجار: «الذين شعارهم الفجور، وهو أشد المعصية، والمراد به: الكفر وأعماله التي لا يراقب أصحابها التقوى»⁽³⁾.

وقد اشتملت الآية على تشبيهين؛ المشبه في التشبيه الأول هو حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وفي التشبيه الثاني هو حال المتقين، والمشبه به في التشبيه الأول هو حال المفسدين في الأرض، وفي التشبيه الثاني هو حال الفجار، وأداة التشبيه في كليهما هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، وهي في (أم) المنقطعة على رأي الزمخشري ومن تابعه، وعليه يكون المراد « أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون، لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى

(1) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سخون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت: 92/29.

(2) سورة ص، الآية: (28).

(3) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: 250/23.

وجفر، ومن سوى بينهم كان سفياً ولم يكن حكيماً»⁽¹⁾، في حين يذكر ابن عاشور أنه استفهام مقدر، « بعد (أم)، وهو من لوازم استعمالها، وهو استفهام إنكاري»⁽²⁾، ويرى أن (أم) الأولى والثانية أفادتاً إضراباً انتقالياً للارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق في (أم) الأولى، وعلى أن الربانية بمراعاة الحق وانتفاء الباطل في الخلق تقتضي الجزاء والبعث لأجله في (أم) الثانية⁽³⁾. ويذهب القرطبي في بيانه للآية إلى أن الميم «صلة، تقديره: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض»⁽⁴⁾. أما وجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه، فهو مثل الآية الأولى؛ يحتمل أن يكون سوء الحال⁽⁵⁾؛ لأن سوء الحال أقوى وأعرف وأخص بالمشبه به، ويحتمل أن يكون حسن الثواب في الآخرة، وأن نص الآية جاء وفق معتقد الكافرين بأنهم أعلى من المؤمنين⁽⁶⁾، كما يحتمل أن يكون التشبيه مقلوباً⁽⁷⁾؛ وذلك لموافقة ادعائهم على سبيل المبالغة.

ويذكر الزركشي وجهين في سبب مخالفة أصل التشبيه: «أحدهما: أن الكفار كانوا يقولون: نحن نسود في الآخرة كما نسود في الدنيا، ويكونون أتباعاً لنا، فكما أعزنا الله في هذه الدار يعزنا في الآخرة، فجاء الجواب على معتقدهم أنهم أعلى، وغيرهم أدنى. الثاني: لما قيل قبل الآية: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ أي: يظنون أن الأمر يهمل،

(1) الزمخشري، الكشاف: 88/4، وينظر: النسفي (أبو البركات عبدالله بن أحمد)، تفسير القرآن الجليل المسمى بـ "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، 191/3.

(2) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: 249/23.

(3) ينظر: نفسه، 249/23 - 250.

(4) القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1421هـ - 2000م، 169/15.

(5) ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، 208/1.

(6) ينظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، 230/4.

(7) ينظر: محمود بن عبدالرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، 46/29.

وأن لا حشر ولا نشر، أم لم يظنوا ذلك، ولكن يظنون أنا نجعل المؤمنين كالمجرمين، والمتقين كالفجار»⁽¹⁾.

ونفي المساواة بين الفريقين، هو كناية عن مجازاة المسلمين خيراً في الآخرة، وحرمان الكافرين منه. ومن المحسنات البديعية التي اشتملت عليها الآية، المقابلة بين المؤمنين والمفسدين في الأرض، والمتقين والفجار.

3- نفي المساواة بين حال من وعده الله الوعد الحق في الآخرة، وحال من متعه في الحياة الدنيا: نفي الله ﷻ المساواة بين حال من وعده حسن الثواب الدائم في الآخرة من المسلمين وهو لا محالة ظافر به، وحال من متعه بحطام الدنيا الزائل من الكافرين، ثم هو يوم القيامة من المجازين على أعمالهم بالعذاب، في قوله: (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)⁽²⁾.

روى القرطبي في تفسيره عدة روايات بشأن من نزلت فيه الآية ؛ الأولى: أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل، والثانية: أنها نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل، والثالثة: أنها نزلت في حمزة وعلي، وأبي جهل وعمارة بن الوليد، والرابعة: عن أنها نزلت في عمار والوليد بن المغيرة، والخامسة: أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم، والسادسة: عن الثعلبي أنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعده الله، وله في الآخرة الجنة⁽³⁾.

وإذا كان معظم المفسرين يرون أن المقصود بالوعد الحسن، هو حسن الثواب في الآخرة المتمثل في الجنة ونعيمها، والمقصود بقوله: (مِنْ الْمُحْضَرِينَ)؛ هو العذاب في الآخرة، فإن الجوزي يذكر قولين في المقصود بالوعد الحسن: الأول: الجنة، والثاني: النصر، كما يذكر قولين في المقصود بقوله:

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 428/3 - 429.

(2) سورة القصص، الآية 61.

(3) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 268/13 - 269.

(مِنْ الْمُحْضَرِينَ)؛ الأول: عن قتادة: من المحضرين في عذاب الله تعالى، والثاني عن الماوردي: من المحضرين للجزاء⁽¹⁾

والأقرب في المقصود بالعبارتين - من وجهة نظري - هو ما ذهب إليه معظم المفسرين⁽²⁾، ووافق القول الأول مما ذكره الجوزي في المقصود بكلتا العبارتين.

قد ذكر الشعراوي أن كلمة المحضرين « لا تستعمل في القرآن إلا للعذاب، وربما الذي وضع كلمة (محضر) قصد هذا المعنى؛ لأن المحضر لا يأتي أبداً بخير »⁽³⁾.

وعليه، فالمشبه هو حال من وعده الله حسن الثواب في الآخرة، هو لا محالة ظافر به، والمشبه به هو حال من متعه بمتاع الحياة الدنيا، ثم هو يوم القيامة من المعذنين، وأداة التشبيه الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري الدال على النفي⁽⁴⁾، وأما وجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه - فإنه لما كان التشبيه في الآية تشبيهاً للأعلى بالأدنى - فهو إما أن يكون سوء المصير في الآخرة، لأن المقام مقام ذم الكافرين، والكافرون هم الأعراف والأخص بسوء المصير في الآخرة، وإما أن يكون حسن الثواب في الآخرة؛ مراعاة لما كان يعتقد الكافرون، ويشيعونه بين الناس، بأنهم هم الأعلى وأن المسلمين هم الأدنى، أو مراعاة لدعائهم على سبيل المبالغة، وعدُّ التشبيه من قبيل التشبيه المقلوب.

4- نفي المساواة بين حال من أثار الله بصيرته وأسلم بعد الكفر وحال من بقي في ظلمات الكفر:

(1) ينظر: الجوزي (أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ط4، 1407 هـ - 1987 م، 235/6.

(2) ينظر: البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود)، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان شرارة، دار المعرفة، بيروت ط4، 1415 هـ - 1995 م، 451/3، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 268/13، وأبو السعود (محمد بن محمد العمادي)، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1411 هـ - 1990 م، 21/7.

(3) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، د.ت، 10979/18.

(4) ينظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998 م، 426/10.

نفى الله ﷻ المساواة بين حال من كان ضالاً فهداه الله إلى الإيمان، وأنار بصيرته بنور الإسلام والقرآن؛ ليميز بين الحق والباطل، والخير والشر، ويعرف ما له وما عليه من حقوق وواجبات، وحال من استقر في ظلمات الكفر لا يفارقها بحال، وذلك في قوله تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (1).

فقد اشتملت الآية- إضافة إلى التشبيه المنفي- على أربع استعارات، هي: استعارة الموت للضلال، والحياة للهداية، والنور للإسلام والقرآن، والظلمات للكفر، وفي قوله: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا) مضاف محذوف تقديره: أو مثل من كان ميتاً(2)، وكلمة مثل بمعنى حالة (3).

أما التشبيه المنفي فهو تشبيه تمثيل، المشبه هو حال من كان ضالاً فهداه الله إلى الإيمان، وأنار بصيرته بنور الإسلام والقرآن، والمشبه به هو حال من بقي في ظلمات الكفر ليس بخارج منها، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه هو الجهل والضلال، وعدم التمييز بين الحق والباطل، فهذه المعاني هي الأعراف والأخص بالمشبه به أي: الكافرين؛ لأن الآية جاءت في سياق ذمهم.

وذهب الشيخ ابن عاشور إلى أن الكلام في هذه الآية « جار على طريقة تمثيل حال من أسلم وتخلص من الشرك بحال من كان ميتاً فأحيي، وتمثيل حال من هو باق في الشرك بحال ميت باق في قبره »(4)، وأشار إلى أن وجود (كاف التشبيه) مع عدم التصريح بالمشبهين، أثار شبهة في عد هذين التشبيهين، أهمما من قبيل التشبيه التمثيلي، أم من قبيل الاستعارة التمثيلية، ورأى أنهما

(1) سورة الأنعام، الآية 122.

(2) ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر، بيروت، إعادة طبع

1418 هـ - 1998 م، 26/8.

(3) ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 44/8.

(4) نفسه، 44/8.

استعارتان تمثيلتان، وأن كاف التشبيه متوجه إلى المشابهة المنفية في مجموع الجملتين، لا إلى مشابهة الحالين بالحالين⁽¹⁾.

ويرى العلوي أن الموت والحياة في الآية « مجاز في العلم والجهل، وأن المقصود من الآية، تفاوت ما بين الحاليتين: بين من أحياه الله - تعالى - بالعلم، ومن أماته الله بالجهل، كما أن من كان في الظلمة ليس حاله كحال من هو في النور يتصرف ويتقلب»⁽²⁾.

لكن ما أورده بعض المفسرين عن نزلت فيهم هذه الآية، يؤيد أن المقصود بالموت والحياة منه هما: الضلال، والهداية، وأن المقصود بالنور والظلام هما: الإسلام والكفر؛ فقد روي عن ابن عباس أنها نزلت في حمزة بن عبدالمطلب وأبي جهل، في حين روي عن الضحّاك أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل. أما عكرمة والكلبي فقد روي عنهما أنها نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل⁽³⁾.

ونفي المشابهة في الآية «معناه نفي المساواة، ونفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحاليتين على الأخرى تفضيلاً لا يلتبس»⁽⁴⁾، أي: تفضيل المسلم على الكافر.

والحياة والنور في الآية، أُضيفتا إلى الله ﷻ، في حين لم يضاف إليه الموت والظلام، للتأكيد على أن هداية الإنسان للإيمان تعتمد على مشيئة الله ﷻ، وفي ذلك يقول ﷺ: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) ⁽⁵⁾ ويقول أيضاً: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)⁽⁶⁾، وقد قال الله في جانب المؤمن: (يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) إشارة إلى أن نور الله لا يفارق

(1) ينظر: نفسه، 44/8 - 45.

(2) العلوي (يحيى بن حمزة بن علي)، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ - 1995م، ص552 - 553.

(3) ينظر: البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود)، تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومرwan شرار، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1415هـ - 1995م، 128/2.

(4) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 44/8.

(5) سورة القصص، الآية 56.

(6) سورة النور، من الآية 35.

المؤمن أينما ذهب، وأن نفعه ليس مقصوداً عليه وحده، وإنما يصل إلى غيره من بقية الناس، على حين قال في جانب الكافر: (لَيْسَ بِمُخَارِجٍ مِّنْهَا) إشارة إلى أنه قابع في ظلمات الكفر لا يفارقها، وأكد ذلك بدخول الباء على خبر ليس، وقال: (فِي الظُّلُمَاتِ) بصيغة الجمع؛ ليدل على أن ظلمات الكفر كثيرة ومتنوعة، وبني فعل التزيين في آخر الآية للمجهول؛ للدلالة على أنه قد يقع من الشيطان، وقد يقع من غيره.

ومن ألوان البديع الذي اشتملت عليه الآية، (الطباقي) في قوله: (مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ).

5- نفي المساواة بين حال من اكتسبوا السيئات وحال الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

نفى الله ﷻ المساواة بين حال الكافرين الذين اكتسبوا السيئات وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات في الحياة أو بعد الممات، في قوله سبحانه: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)⁽¹⁾.

فالفعل (اجترحو) من معانيه: اكتسبوا، وهو من الجرح بمعنى الكسب، جاء في اللسان: «جرح الشيء واجترحه: كسبه... يقال لإناث الخيل: جوارح، واحدها جارحة؛ لأنها تكسب أربابها تتاجها... وفلان جارح أهله وجارحتهم، أي: كاسبهم، والجوارح من الطير والسباع والكلاب: ذوات الصيد؛ لأنها تجرح لأهلها؛ أي: تكسب لهم... وجوارح الإنسان: أعضاؤه وعوامل جسده»⁽²⁾، وقد غلب «إطلاق الاجتراح على اكتساب الإثم والخبيث»⁽³⁾، والفعل (نجعلهم) بمعنى: نصيرهم، فهو من (جعل) التي تنصب مفعولين.

وعليه فالمشبه في هذه الآية هو حال من اكتسبوا السيئات من الكافرين، والمشبه به هو حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام

(1) سورة الجاثية، الآية 21.

(2) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م، مادة: (جرح).

(3) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 353/25.

الإنكاري في (أم) المنقطعة⁽¹⁾، أو الاستفهام الإنكاري الذي يلزم تقديره بعد (أم)⁽²⁾. أما وجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه، فهو الكرامة في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة. وقد اختلف في تحديد معنى جملة (سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ)؛ نتيجة لاختلاف القراءات، والتنوع في إعراب الجملة، فقيل: إن المعنى هو: «إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي، ومماتاً حيث عاش هؤلاء على البشري بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم. وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة؛ لأن المسيئين والمحسنين مستو محيائهم في الرزق والصحة، وإنما يفترون في الممات، وقيل: سواء محيائهم ومماتهم: كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه»⁽³⁾.

وجملة (سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ) «تذليل لما قبلها من إنكار حسابهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني»⁽⁴⁾؛ لأن الآية حسبما قيل في سبب نزولها: أنها نزلت في قوم من الكافرين قالوا: إنهم يعطون في الآخرة خيراً مما يعطاه المؤمنون⁽⁵⁾.

ومن المحسنات البديعية التي اشتملت عليها الآية: (الطباق) في قوله: (محيائهم ومماتهم، والسيئات والصلحاحات).

6- نفي المساواة بين حال المؤمن وحال الفاسق:

نفى الله ﷻ المساواة في الآخرة بين حال المسلم وحال الفاسق في قوله ﷻ: (أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ)⁽⁶⁾.

(1) ينظر: الزمخشري، الكشاف، 286/4.

(2) ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 351/25.

(3) الزمخشري، الكشاف، 286/4 - 286.

(4) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 355/25.

(5) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 143/16.

(6) سورة السجدة، الآية 18.

فالفسق: هو العصيان والترك لأمر الله ﷻ والخروج عن الطريق، والفسق أيضاً: هو الخروج عن الدين والميل إلى المعصية، ويكون شركاً كما يكون إثماً⁽¹⁾، وقد جاء في القرآن الكريم بمعنى: (الكفر، والمعصية، والكذب، والإثم، والسيئات)، وهو في هذه الآية بمعنى الكفر⁽²⁾. وهذا ما أكدته الآيتان اللتان تلتا هذه الآية، وفصلتا عدم الاستواء الذي جاء مجملاً فيها. والمشبه في الآية هو حال من كان مؤمناً، والمشبه به هو حال من كان فاسقاً، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة فيه هو حسن الثواب في الآخرة، وذلك بالنظر إلى أن بنية التشبيه جاءت وفق معتقد الكافرين أو ادعائهم، أو يكون سوء العقاب في الآخرة، وذلك لكون المقام في ذم الكافرين وتوبيخهم ووعيدهم. ومع أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ وعقبة بن أبي معيط وابنه الوليد، عندما قال أحدهما - بحسب اختلاف الروايات - لعلي: أنا أحدّ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملاً للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق⁽³⁾، ومع ذلك فإن الله قال: (لَا يَسْتَوُونَ)، ولم يقل: لا يستويان؛ لأنه لم يرد من نفي المساواة « مؤمناً واحداً وفاسقاً واحداً، بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين»⁽⁴⁾، كما أن في قوله: (لَا يَسْتَوُونَ) «زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام على أبلغ وجه وأكده؛ ليبنى عليه التفصيل الآتي»⁽⁵⁾. ونفي المساواة بين شيئين يراد به غالباً تفضيل أحدهما على الآخر بحسب دلالة السياق، وهو في هذه الآية كناية عن إعطاء المسلمين حسن الثواب في الآخرة وحرمان الكافرين منه⁽⁶⁾.

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(2) ينظر: الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419هـ - 1998م، مادة فسق، ص692.

(3) ينظر: السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر)، أسباب النزول، راجعه وخرج أحاديثه: محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 2012م، ص196.

(4) البغوي، تفسير البغوي، 3/205.

(5) الغنوجي (أبو الطيب صديق خان)، فتح البيان في مقاصد القرآن، عن بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، 1412هـ - 1992م، 28/11.

(6) ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 4/290، 29/92.

7- نفي المساواة بين حال من اتبع رضوان الله وحال من رجع بسخطه:

نفي الله ﷻ المساواة بين حال من اتبع رضا الله بالإيمان به وبطاعته فيما أمر به ونهى عنه، وحال من رجع بغضبه نتيجة كفره وانشغاله بمعاصيه، في قوله: (أَفَنِّ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ الْمَصِيرُ) (1).

(الرضوان): بمعنى الرضا، وهو ضد السخط، والسخط: هو الغضب، وكرهية الشيء، وعدم الرضا به، و(باء): من البوء، بمعنى: رجع (2)، ومع أن اللفظ في الآية عام بشأن المقصود بمن اتبع رضوان الله، وبمن باء بسخط من الله، فإن للمفسرين عدة أقوال فيهما، فقيل المقصود بهما: من ترك الغلول، ومن فعله، وقيل: المؤمنون والعاملون بطاعته والكفار المشتغلون بمعصيته، وقيل: المهاجرون والمنافقون، وقيل: الذين استجابوا لدعوة النبي ﷺ لجهاد المشركين ومن تخلفوا عن الجهاد، وقيل: من امثلوا أمره، ومن لم يقبلوا قوله (3).

فالمشبه هو حال من اتبع رضوان الله، والمشبه به حال من باء بسخط من الله، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، ووجه الشبه الذي نفي الله ﷻ المساواة فيه هو سوء المصير في الآخرة، فهذا المعنى هو الأعراف والأخص بالمشبه به، وهو المعنى الذي أكدته آخر الآية.

وفي الآية استعارة بديعة، وحذف من حيث المعنى، فالاستعارة تتمثل في جعل ما شرعه الله دليلاً يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً لم يتبعه، ورجع بما يخالف الاتباع. أما الحذف من حيث المعنى فتقديره: أفن اتبع ما يؤول به إلى رضا الله عنه فباء برضاه كمن لم يتبع ذلك فباء بسخطه (4).

(1) سورة آل عمران، الآية: (162).

(2) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مواد: (رضي، سخط، بوا).

(3) ينظر: نفر الدين الرازي (محمد بن عمر بن الحسين): "التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب"، دار الكتب العلمية، بيروت: ط 1، 1421هـ - 2000م، 61/9.

(4) ينظر: أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف): "البحر المحيط في التفسير"، دراسة وتحقيق وتعليق: عماد أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت: ط 1، 1422هـ - 2001م، 107/3.

وجملة: (وَمَا أَوْاهُ جَهَنَّمُ) إما أن تكون مستأنفة، وإما أن تكون معطوفة على جملة: (بَاءً بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ)، وداخلة في حيز الموصول. أما قوله: (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فهو إما تذييل، أو اعتراض، أو معطوف على الصلة بتقدير، (وهو)؛ لإنشاء الذم، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: جهنم⁽¹⁾، وفي تعقيب الله ﷻ ذكر سخطه بذكر عقابه ما يدل على أن السخط والعقاب متلازمان⁽²⁾. وفي الآية من ألوان البديع: (الطباق بين الرضا والسخط).

8- نفي المساواة بين حال من كانوا على حجة واضحة من ربهم وحال من زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم:

نفي الله ﷻ المساواة بين حال من كانوا على حجة واضحة وبرهان ساطع من أمر الله ودينه، وبما أنزل في كتابه العزيز من الهدى والعلم، وحال من زين لهم الشيطان أو أحد أئمة الكفر شركهم بالله وعداوتهم له ومخالفة تعاليمه، واتبعوا أهواءهم الزائفة المضلة في قوله تعالى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) (3).

(البينة): هي الدلالة والحجة الواضحة، عقلية كانت أو حسية، وتُجمع على: بينات⁽⁴⁾.

والمشبه في الآية هو حال من كان على دلالة وحجة واضحة من ربه، والمشبه به هو حال من زين له سوء عمله واتبع هواه، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، أما وجه الشبه الذي نفي الله ﷻ المساواة فيه فهو الهلاك والضلالة والجهالة، فهذا المعنى هو الأعراف والأخص بالمشبه به، ويؤيده أن الآية جاءت تفريعاً على جملة (أَهْلَكَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)، الواردة في الآية السابقة⁽⁵⁾.

(1) ينظر: الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود): "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت: ط 1، 1422هـ - 2001م، 323/2.

(2) ينظر: محمد أبو زهرة: "زهرة التفاسير"، دار الفكر العربي، القاهرة: د.ت، 1487/3.

(3) سورة محمد، الآية: (14).

(4) ينظر: الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني)، "تاج العروس من جواهر القاموس"، تحقيق: عبد الفتاح الحلوة، راجعه: مصطفى مجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت: 1406هـ - 1986م، مادة: (بين).

(5) ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 92/26.

وقد بنى الله ﷺ الفعل (زين) للمجهول؛ للدلالة على أن تزوين أعمال السوء قد يقع من الشيطان، وقد يقع من غيره من أئمة الكفر. أما أفراد (زِين لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) وجمع (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) فقد روعي لفظ من في (زِين) في حين روعي معناها في (وَاتَّبَعُوا)⁽¹⁾.

9- نفي المساواة بين حال من علم الحق فاتبعه، وحال من جهله وأعرض عنه:

نفي الله ﷺ المساواة بين حال المؤمن الذي يعلم أنما أنزل على سيدنا محمد ﷺ هو الحق فآمن به واتبعه، وحال الكافر الذي انطمست بصيرته، فجهل الحق، وأعرض عنه، في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)⁽²⁾.

فكلمة (العمى) في الآية لا يقصد بها عمى البصر، وإنما المقصود بها عمى البصيرة، فهي استعارة للجهل بالحق والإعراض عنه.

والمشبه في الآية هو حال من يعلم أنما أنزل على سيدنا محمد ﷺ هو الحق، والمشبه به هو حال من عمت بصيرته فأصبح لا يرى الحق ولا يؤمن به، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷺ المساواة فيه هو الجهل والضلال وعدم التمييز بين الحق والباطل.

ومع أن حمل الآية على العموم أولى من التخصيص، فقد قيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل، وقيل: في عمار بن ياسر وأبي جهل، أي: أن الأول حمزة أو عمار، والثاني أبو جهل⁽³⁾.

أما آية: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) فمعناها: إنما يتعظ ويعتبر أصحاب العقول السليمة الصحيحة القادرة على التدبر والتمييز، وهي « تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأن سبب عدم علمهم بالحق أنهم ليسوا أهلاً للتذكر؛ لأن التذكر من شعار أولي الألباب؛ أي: العقول، والقصر بـ(إنما) إضافي؛ أي: لا غير أولي الألباب، فهو تعريض بالمشركين بأنهم لا عقول لهم إذا انتفت عنهم

(1) ينظر: محي الدين الدرويش: إعراب القرآن وبيانه: 197/7.

(2) سورة الرعد، الآية (19).

(3) ينظر: البغوي، تفسير البغوي، 14/3.

فائدة عقولهم «⁽¹⁾ ، (وفي الوقت نفسه
« مدح لأصحاب العقول السليمة، الذين ذكروا بالحق فتذكروه وآمنوا به »⁽²⁾ .

10- نفي المساواة بين حال الكافر وأعماله المحبطة وحال المؤمن وأعماله المثبتة:

نفي الله ﷻ المساواة بين حال الكافر القائم بأعمال سقاية الحجيج وبناء المسجد الحرام وخدمته وصيائته، وحال المؤمن بالله واليوم الآخر والمجاهد في سبيله، والمساواة بين أعمال سقاية الحجيج وبناء المسجد الحرام وخدمته وصيائته، والإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، وذلك في قوله تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)⁽³⁾ .

فالمشبه بحسب ظاهر الآية، هو سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، والمشبه به هو من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، وأداة التشبيه هي الكاف، وأداة النفي هي همزة الاستفهام الإنكاري، ووجه الشبه الذي نفي الله ﷻ المساواة فيه هو الفضيلة والدرجة والمثوبة عند الله، وقد وقع احتباك⁽⁴⁾ في طرفي التشبيه، حيث حذف المشبه به لدلالة المشبه عليه، وحذف المشبه لدلالة المشبه به عليه، فالسقاية والعمارة مصدران، وهما من الصفات، والمؤمن والمجاهد فاعلان، وهما من الذوات، وهذا يتطلب تقدير مضاف في أحد الجانبين، وهو: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، أو: أجعلتم صاحب سقاية الحاج وصاحب عمارة المسجد الحرام، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله.

(1) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 123/13.

(2) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 469/7.

(3) سورة التوبة، الآية (19).

(4) الاحتباك هو: « أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله من الأوائل » عبد الرحمن بن حسن الميداني: البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط/1، 1416 هـ - 1996م:

وقوله: (لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) كلام مستأنف، مؤكد لما علم من إبطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام. أما قوله: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) فهو تعليل في المعنى لنفي المساواة، وفيه إشارة إلى الفريق المفضل⁽¹⁾، ونفي الهداية هو كناية عن نفي «حصول الغرض من العمل، والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم»⁽²⁾.

ونتيجة لتعدد الروايات في سبب نزول هذه الآية⁽³⁾، فقد اختلف المفسرون في تحديد المخاطبين بها، هل هم المؤمنون، أو هم الكافرون؟ وسواء أكان هذا الفريق أم ذلك، فالذي يعيننا في هذا السياق، هو ليس تحديد المخاطبين بالآية، وإنما تحديد انتماء صاحب السقاية وصاحب العمارة، هل هو من المؤمنين أو من الكافرين؟ ومن هذه الناحية، فإني أرحم القول بأنه من الكافرين، بدليل مقابله بالمؤمن بالله واليوم الآخر والمجاهد في سبيل الله في نفي التشابه أو التساوي، ووصفه بالظلم وعدم هداية الله له في آخر الآية، وهذا لا يعني بالضرورة عدم نفي المساواة بين صاحب السقاية والعمارة من المؤمنين، والمؤمن بالله واليوم الآخر والمجاهد في سبيل الله.

الخلاصة

أخيراً ومن خلال هذا العرض فإنه يمكن تسجيل النتائج الآتية:

أ. إن التشبيهات المنفية بالطريقة التي جاءت عليها في القرآن الكريم، هي أسلوب من أساليب التشبيه التي عُرِفَ بها القرآن الكريم، وهي وجه من وجوه بلاغته التي تميز بها.

ب. عدم انطباق تعريفات البلاغيين للتشبيه على التشبيهات المنفية، فإذا كان البلاغيون قد عرّفوا التشبيه بأنه: «هو العقد على أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حس أو عقل»⁽⁴⁾،

(1) ينظر: الغنوجي، "فتح البيان في مقاصد القرآن": 267/5.

(2) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 147/10.

(3) ينظر: السيوطي: "أسباب النزول": ص 127 - 128.

(4) الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى): "النكت في إعجاز القرآن"، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط/4، دت، ص 80.

على سبيل المجاز، فإن سياق الكلام وقرائن الأحوال قد توحى بمعاني أخرى غير الإنكار والنفي؛ كتعظيم المسلمين، أو تحقير الكافرين، وتوبيخهم، والتهكم بهم، أو غيرها من المعاني المجازية التي يخرج إليها الاستفهام⁽¹⁾ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن سوق الحديث بأسلوب الاستفهام الإنكاري، إنما هو تنبيه على أن عدم المساواة بين المسلمين والكافرين أمر بدهي، لا تختلف عليه العقول والأفهام.

ز. الاعتماد على أسلوب الاستفهام في عرض حكم عدم المساواة بين المسلمين والكافرين بدلاً من الخبر التقريري؛ وذلك لما « في الاستفهام من توضيح الحكم وتأكيده، ما ليس في الخبر التقريري، الذي يجيء بالحكم صريحاً مواجهاً، يلقي به إلقاء على سبيل الإلزام والتحكم!، ففي الأسلوب الاستفهامي، دعوة إلى العقل أن ينظر في هذه القضية، وأن يشارك في الحكم المناسب لها، وفي البحث عن الحثيات التي تدعم هذا الحكم وتسندة »⁽²⁾.

ح. وجه الشبه المنفي في التشبيهات المعروضة، جاء مجملاً وليس مفصلاً، وهو ما يفتح المجال واسعاً في تصوره وتقديره؛ إيجاباً أو سلباً، مدحاً أو ذماً، قلة أو كثرة.

ط. الكاف هي أداة التشبيه في هذه التشبيهات، والكاف هي أصل أدوات التشبيه، لبساطتها ووضوح التشبيه معها.

ي. إن نفي تشبيه المسلمين بالكافرين، هو كناية عن تفضيل المسلمين على الكافرين، وفوزهم بحسن الثواب عند الله ﷻ؛ لأن نفي التشبيه يعني نفي المساواة، ونفي المساواة يعني تفضيل أحد الفريقين على الآخر، والفريق الأفضل - بطبيعة الحال وبحسب السياق الذي وردت فيه الآيات - هم المسلمون.

(1) ينظر: عبد العزيز عتيق، "في البلاغة العربية علم المعاني"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: 1974م، ص: 104 -

.121

(2) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 621/11.

ك. لما كان نفي التشبيه أو نفي المساواة بين المسلمين والكافرين، اعتمد في أغلب الآيات على معان وأوصاف وأحوال متضادة، فقد اشتملت أغلب هذه التشبيهات على لون من ألوان البديع، وهو المطابقة أو المقابلة، بحيث جعلت التمايز بين الفريقين أكثر وضوحاً، وكما يقال: وبضدها تميز الأشياء.

المصادر والمراجع:

- (1) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- (2) الألويسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ - 2001م.
- (3) البابرّي (أبّكل الدين بن محمد بن محمد بن محمد): شرح التلخيص، دراسة وتحقيق: محمد مصطفى صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط 1، 1392 ور - 1983م.
- (4) البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود): تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان شرار، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 1415هـ - 1995م.
- (5) الجرجاني (محمد بن علي بن محمد)، الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة: 1418هـ - 1997م.
- (6) الجوزي (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن): زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق، ط 4، 1407هـ - 1987م.
- (7) حامد عوني: المنهاج الواضح للبلاغة، مكتبة الجامعة الأزهرية، القاهرة، د.ت.
- (8) أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف): البحر المحيط في التفسير، دراسة وتحقيق وتعليق: عماد أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ - 2001م.
- (9) الخطيب القزويني (جلال الدين بن محمد بن عبد الرحمن): الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق ودراسة: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 1416هـ - 1996م.
- (10) الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى): النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل

- في إيجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط 4، د.ت.
- (11) الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، راجعه: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1406هـ - 1986م.
- (12) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.
- (13) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به ورتب حواشيه: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط 1، 2012م.
- (14) أبو السعود (محمد بن محمد العمادي): تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، ط 2، 1411هـ - 1990م.
- (15) السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد): مفتاح العلوم، حققه وقدم له وفهرسه: عبد الحميد هندراوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط 1، 1420 هـ - 2000م.
- (16) السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر)، أسباب النزول، راجعه وخرج أحاديثه: محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 2، 2012م.
- (17) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): معترك الأقران في إيجاز القرآن، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1408هـ - 1988م.
- (18) عبد الرحمن بن حسن الميداني: البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط 1، 1416هـ - 1996م.
- (19) عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: 1974م.

- (20) عبد العظيم إبراهيم المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1413 هـ - 1992 م.
- (21) عبد الكريم يونس الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- (22) العلوي (يحيى بن حمزة بن علي): كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415 هـ - 1995 م.
- (23) الغنوجي (أبو الطيب صديق خان): فتح البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت: 1412 هـ - 1992 م.
- (24) نجر الدين الرازي (محمد بن عمر بن الحسين): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1421 هـ - 2000 م.
- (25) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد): الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1421 هـ - 2000 م.
- (26) الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى): الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1419 هـ - 1998 م.
- (27) محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة: د.ت.
- (28) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: 1998 م.
- (29) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سخون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
- (30) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، د.ت.
- (31) محمود بن عبد الرحيم صافي: الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق،

- دار الإيمان، بيروت، ط 4، 1418هـ.
- (32) محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، الإمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ط 8، 1422هـ - 2001م.
- (33) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، 1410هـ - 1990م.
- (34) النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد): تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- (35) وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، إعادة طبع: 1418هـ - 1998م.